دورة الإمام محمد بن إبراهيم آل الشيخ الشرعية

كلمة توجيهية لطلاب العلم بجدة

فضيلة الشيخ
د. محمد بن هادي المدخلي
عضو هيئة التدريس
بكلية الحديث الشريف والدراسات الاسلامية

٢٨ رجب ١٤٣١هـ

(... لأنه كثر الجهل، الجهل كثر، وتنوعت أشكالُه، وفي هذا الزمن كثر الجهل المركب -معشر الإخوة والأبناء- الجهل المركب الذي ترونه أو تسمعون به الذي فضح أصحابه، ومع ذلك لا يُوجد مُعْتَبِرٌ من هؤلاء أو بهؤلاء.

وَتَعَـــرَّى مِـــنْ ثَـــوْبَيْنِ مَـــنْ يَلْبَـــسُهُمَا ... يَلْقَـــى الـــصَّغَارَ بِذِلَّـــةٍ وَهَـــوَانِ
ثَـــوْبٍ مِـــنَ الْجَهْـــلِ الْمُرَكَّـــبِ فَوْقُـــهُ ... ثَـــوْبُ التَّعَـــصُّبِ بِئْـــسَتِ الثَّوْبَـــانِ
وَالْجَهْـــــلُ دَاءٌ قَاتِـــــلٌ وَدَوَاءُهُ ... أَمْـــرَانِ فِي التَّرْكِيـــبِ مُتَّفِقَـــانِ
نَـــصٌّ مِـــنَ القُـــرْآنِ أَوْ مِـــنْ سُـــنَّةٍ ... وَطَبِيـــبُ ذَاكَ الْعَـــالِمُ الرَّبَّـــانِي

الجهل المركب -معشر الإخوة والأبناء- نراه جَليًّا اليوم، كل مَن تعلم وتثقف لم يكتفِ بذلك بل صالَ على حِمَى الشريعة المطهرة وأصبح يصول في ذلكم الحِمَى ويجول ويتكلم بما يحلو له..

وهذا كما قال ابن مسعود -رضي الله عنه- (**يَكْثُرُ الْقُرَّاءُ وَيَقِلُّ الْفُقَهَاءُ وَيُتَعَلَّمُ لِغَيْرِ الدِّينِ**).اهـ -نسأل الله العافية والسلامة-.

أعود فأقول: هذا الجهل المركب الذي ترون وتسمعون كثرت محطاته الفضائية، فصرتَ ترى مَن يَتَسَنَّمُ سَنام العلم ويمتطي ظهره وليس من أهله؛ فلهذا تسمع المنكرات وكل يوم تقرأ الشذوذات، وما تغيب شمس وتطلع إلا وتُصبح على بَواقِع وطامات..

لِمَ؟ لأن هؤلاء الجهلة جهلاً مركبًا -وهم الذين لا يدرون، ولا يدرون أنهم لا يدرون- أصبحوا يهرفون بما لا يعرفون، وحينئذٍ ظنوا أنفسهم هم وأهل العلم سواء -شتان-.

فلأجل ذلك -معشر الإخوان- فلأجل ذلك -معشر الأبناء- كثر الكلامُ في العلم وتكرر فيه أيضًا..

العلم -معشر الإخوة- الذي يرفع الله به الجهل هو هذا الذي أنتم ترونه وتعيشونه في مثل هذه اللقاءات في بيوت الله -تبارك وتعالى-.

اَلْعِلْـــمُ قَـــالَ اللهُ قَـــالَ رَسُـــولُهُ ... قَـــالَ الـــصَّحَابَةُ هُـــم أُولُـــواْ الْعِرْفَـــانِ
مَـــا الْعِلْـــمُ نَـــصْبَكَ لِلْخِـــلاَفِ سَـــفَاهَةً ... بَـــيْنَ الرَّسُـــولِ وَبَـــيْنَ رَأْيِ فُـــلاَنِ

فالعلم هو: قال الله، قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال الصحابة -رضي الله عنهم وأرضاهم-.

هذا هو فهم السلف، فهم أصحاب رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وفهم تلاميذهم البررة من التابعين الأتقياء – رضي الله عنهم– الذين يقولون: (إن هذا العلم دين؛ فانظروا عمن تأخذون دينكم).

فلا يُؤخذُ العلم عن المجهولين ولا المفتونين ولا الفسقة ولا المبتدعة، فالأربعة هؤلاء لا يُؤخذُ عنهم العلم؛ لأنهم ليسوا له بأهل، مهما بقيت لا تستفيد من هؤلاء..

فالسفيه هذا يُزري بالعلم، والمبتدع لا يُؤمَن على العلم ولا على مَن يُعَلِّم، والمجهول لا تدري مَن هو فليس بمأمون على العلم؛ لأن (هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُواْ عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ)، (لا تزال هذه الأمة بخير ما أتاهم العلم من قبل أكابرهم فإذا أتاهم من قبل صِغارهم هلكوا).

والأكابر فيه تفسيران لأئمة الحديث والأثر.

قيل: إنه بالسِّن، مَن شابت رؤوسهم ولحاهم فرسخت أقدامهم في التحصيل والطلب والمعرفة حتى عُرفوا بذلك وشُهد لهم واستفاض بين الناس ذلك، عُرفوا بالإفادة، هؤلاء هم الذين يُؤخذ عنهم.

وقيل: المراد به أهل الأثر الذين يتمسكون بالأثر، فهم الأكابر ولو صغر السن، ومَن خالف الأثر وذهب إلى الأهواء، فهو من الأصاغر ولو شابت لحيته ورأسه –قولان لأهل الحديث في تفسير هذا، وكلاهما صحيح–.

ونحن اليوم نرى و نسمع –كما قلتُ لكم– كلَّ يومٍ نسمع باقِعَة قبل من هؤلاء الجهلة جهلاً مركبًا يخالفون ولا يهمهم المخالفة،يأتون بالمنكرات ولا يهم ذلك، يأتون بالشواذ والطامات ولا يهمهم ذلك، لماذا؟! لأن الناس هانَ عليهم هذا الدين.

امتحن هؤلاء إذا جاء وقت الصدق والجِد تراهم إذا نزلت النازلة لا يُهرعون إلا إلى رؤوس العلم الكبار؛ لأنهم قد وثقوا بعلمهم ووثقوا بعقولهم الراسخة في الفهم، ولكن ما بالهم فيما سوى ذلك لا يُقبلون عليهم، أو إذا ذُكر لهم قول هؤلاء، قالوا: وفلان –وإن لم يكن في السن مثلهم فهو مثلهم–.

فانظر إلى هذا الذي قيل عنه ذلك وإذا به لا يُعرف له شيخ!! بين عشيةٍ وضحاها طلع على الناس في هذه الفضائيات، ونحن في هذا الزمن الإعلام غَلاّب، فأصبح الناس لا يعرفون إلا مَن يظهر عليهم في الشاشات وفي هذه المحطات.

بل أنا أعرف بعض هؤلاء اضطرب عليه أمرٌ ما في صلاته، فما استطاع أن يُفتي نفسه فجاءني عِلْمُه، قلتُ: (خَلُّوه يُكَلِّم)، ثم قلتُ له: يا فلان إذا كنتَ أنتَ –الآن في هذه المسألة– متحيرًا لا تعرف الفقه والفتوى فيها،

فاتقِ الله في نفسك وجماهير المسلمين الذين تطلع وتخرج عليهم بصورة الشيخ المعلم وإذا سُئلتَ صرتَ الشيخ المفتي، فاتقِ الله يا أخي في نفسك.

معشر الإخوة، العلم لا يأتي بين عشية وضحاها..

جاء رجل إلى مالك فقال: أسألك عن مسألة، فاعتذر إليه مالك -رحمه الله- باشتغاله حينئذ، فقال: مسألة سهلة، فغضب مالك وتصبب عرقًا -مالك الذي قيل فيه: إِذَا ذُكِرَ الْعُلَمَاءُ، فَمَالِكٌ النَّجْمُ، يعني: مرتفع عالي المكانة في العلم فوقهم جميعًا- صَبَّ العَرَق صَبًّا من هذه الكلمة..

ونحن الآن -هذه الكلمة- كم مرة نسمعها؟! مسألة سهلة، سهلة.. صَبَّ العَرَق، ثم قال له: يا هذا إن العلم ليس فيه شيء يسير، ألم تسمع قول الله -تعالى- :﴿إِنَّا سَنُلْقِي عِلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل:٣]، ونهره.

لما هان العلمُ في صدور الناس هان عليهم أمر التحرز والتوقي والبحث عمن يسألون، وهذا عائدٌ أيضًا فيه السبب إلى مَن تسنَّموا سَنام العلم-كما قلتُ قبل قليل- وليسوا منه، وإلى مَن يُنسب إلى العلم -وإن كان عنده علم- وهو سيئ وقديمًا قيل:

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَا

وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانَ وَدَنَّسُواْ ... مُحَيَّاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا

ترى مَن ينتسب إلى العلم لا فَرْقَ بينه وبين سُوقَة الناس وعامتهم إذا جلس في مجلسهم كأحدهم، وإذا ذُكرت الدنيا كان أول المسارعين إليها والمنافسين فيها والمتكالبين عليها .

يَا جَاعِلَ الْعِلْمِ لَهُ بَازِياً ... يَصْطَادُ أَمْوَالَ الْمُسَاكِينِ

اِحْتَلْتَ لِلدُّنْيَا وَلَذَّاتِهَا ... بِحِيلَةٍ تَذْهَبُ بِالدِّينِ

أَيْنَ رِوَايَاتُكَ فِي سَرْدِهَا ... عَنْ اِبْنِ عَوْنٍ وَابْنِ سِيرِينِ

فَصُرْتَ مَجْنُوناً بِهَا بَعْدَ ... مَا كُنْتَ دَوَاءً لِلْمَجَانِينِ

إِنْ قُلْتَ أُكْرِهْتُ فَمَا ذَاكَ ذَا ... زَلَّ حِمَارُ الْعِلْمِ فِي الطِّينِ

فالعالم و طالب العلم لابد وأن تظهر عليه بِزَّةُ العلم وهيبة العلم وعلامة العلم ومكانة العلم وتصرُّف العلم في كل ما يأتي ويذر حتى يقع في قلوب الناس موقعه.

إذا ذُكرت الدنيا كان آخر الناس ذِكرًا لها إن احتاج "مَا لِي وَلِلدُّنْيَا إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَاكِبٍ اِسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا".

يبكي عمر -رضي الله عنه- ويقول: قيصر... [1] ليف على الحصير يؤثر الحصير في ذراعك، فقال -عليه الصلاة والسلام-: (يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة).

عليه الصلاة والسلام ما التفت إلى هذا.. نعم قد يقول قائل: ﴿وَلاَ تَنْسَى نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧]، أقول: على الرأس والعين، لكن أنا أذكِّرك بلفظ الآية بالحرف، إن الله -جل وعلا- قال: (وَلاَ تَنْسَى) أنت أيها المؤمن (نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) يعني: اشتغالك كله للآخرة حتى كادت الدنيا لا وجود لها فَذُكِّرْتَ بها لا تنسى نصيبك منها، والآن العكس أصبح العمل كله للدنيا حتى كاد يُنسى أمر الآخرة.

ولهذا إذا ذُكرت الآخرة وذُكر حالها وما ننتقل إليه في المآل قيل: هذا المُذَكِّر أو هذا الخطيب نظرته سوداوية تشاؤمية لو كان الناس مثل هذا ما مشت الحياة!!

لا، ولكن انظروا مقياس الوحي، النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: (أَكْثِرُواْ مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ اللَّذَاتِ -يعني الموت- فَإِنَّهُ مَا ذُكِرَ فِي كَثِيرٍ إِلاَّ قَلَّلَهُ وَلاَ فِي قَلِيلٍ إِلاَّ كَثَّرَه). يعني: يُورث القناعة ويورث الاجتهاد للآخرة.

فالشاهد الآن: نظرة كثير من المسلمين إلى العالِم وأشياخ العلم الذين لا يطلعون في المحطات والفضائيات نظرة مغلوطة مائة بالمائة؛ فالعلماء عندهم هم الذين يظهرون..

طيب قبل هذه الفضائيات أين العلم ذهب؟! مَزْبُورٌ مسطور مُلئت به المكتبة الإسلامية لا تستطيع له حدًا ولا عدًا ولا حصرًا من هؤلاء الأئمة الفحول الذي تستغرب من سيرة أحدهم من قبل طلوع شمسه إلى غروبها، وقد ملأ علمه الآفاقَ -ما كانت عندهم الفضائيات-.

نحن قبل عشرين سنة ما كانت الفضائيات عندنا، ولكن أين بلغ العلم؟ المشرق والمغرب، والناس أصبحوا الآن -في هذا الجانب- وقد فُتنوا بجانب الإعلام وأصبحوا لا يريدون العلم للعلم لكن يريدون صورة الشيخ المتكلِّم لينظروا إليه.

---

١ - النقص هنا من المصدر نفسه.

ما الذي ينفعهم لو رأوا شيب لحيتي؟! الذي ينفعهم ما أقوله لهم من الحق والنور والهدى؛ فنحن آمنا برسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولم نره -عليه الصلاة والسلام-.

فلأجل هذا تجدهم يغالطون في هذا الجانب؛ فالمسلمات التي كانت بالأمس مسلمات أصبح مشكوكًا فيها ومُشَكَّكٌ فيها..

(باب ما جاء في المصوِّرين): فيه خلاف! و(صلاة الجماعة) -كما هو معلوم للجميع-: فيها خلاف! و(كذا): فيه خلاف! و(الغناء): فيه خلاف!

صحيح، ما بقي إلا كما قلتُ قبل أيام قلائل في درس من الدروس، ما بقي إلا كما قيل في الشيخ [٢] الخُنْفِشَاني: أفي الله شك؟! فيه قولان!! بس ما عاد بقي إلا هذا.

نعم، فيه خلاف، لكن ما كلام أهل العلم؟!

يقولون:

وَلَيْسَ كُلُّ خِلاَفٍ جَاءَ مُعْتَبَراً إِلاَّ خِلاَفٌ لَهُ حَظٌّ مِنَ النَّظَرِ

أما الذي لاحظ له، لا أثر ولا نظر، هذا مرذول، ساقط، لا عبرة به، وهذا يسمى بالشذوذات لا يُلتفت إليه وصاحبه إذا أكثر منه سقط.

ولهذا يقول أبو يوسف -رحمه الله-: (مَن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومَن طلب علم الكلام تزندق، -طيب- ومَن تتبع رخص الفقهاء -يعني الشذوذات- خرج بلا دين). نسأل الله العافية والسلامة.

فالآن أصبح الناس بمَن يطلع عليهم في هذه الفضائيات مفتونين وإذا قلتَ: قال العالم الفلاني، الحَبر، البحر، قال: قال الشيخ فلان.. تنظر إلى الشيخ فلان وإذا به -نعم- دكتور لكن تخصصه صراصير!!

صحيح.. علم الحشرات تخصصه، وآخر تخصصه بيطري، نحن لا نحتقر عباد الله -لا والله- لكن أنا أقولها لكم: لو أردتَ أن تأتي ببوابة جميلة لبيتك، تذهب إلى نجار وإلا تذهب خباز؟!

تذهب إلى نجار وقبل أن تُسْلِمَه البيت الجميل ليخرجه في حلة جميلة ببوابة جميلة تسر الناظرين، تنظر في جميع النجارين حتى تأتي بالنجار الحاذق المتقن، فتسلمه المقاولة وتعطيه العقد ليأتيك بالأبواب لهذا البيت الجميل..

---

٢ - هكذا بالمصدر، ولعلها (للشيخ).

عباد الله، هذا باب بيت تختار له نجارًا متقنًا؛ فكيف بباب الدين الذي تلج منه إلى حلال وحرام، تُسأل يوم القيامة عنه عند الله -تبارك وتعالى-؟! (إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُواْ عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ)، ألا تنظر إلى مَن يُوثَق بدينه وأمانته فتسأله؟!

وصدق رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -هذا في آخر الزمان يقع-: (إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ هذا الْعِلْمَ انْتِزَاعًا ينتزعه من صدور الرجال وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ العلماء حتى إذا لم يَبقَ عالمٌ -أو لم يُبقِ عالمًا- اتخذ الناس رؤوسًا جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا).

وهذا الواقع الآن على الساحة الهَرْج والمَرْج في الفتاوى؛ بسبب هذا الذي ذكرنا.

معشر الإخوة، إذا كان الأمر كذلك فإن هذا يُوجب علينا أن نُشَمِّر عن ساعد الجِد، ونبذل الغالي والنفيس في سبيل التحصيل الصحيح على أهل العلم، والتلقي الصحيح على الطريقة الصحيحة.

الآن الجامعات تُخَرِّج كتبة مثقفين إلا قليلاً ممن يتخرج ممن درس على العلماء، وإذا نظرتَ إلى نتيجته في علمه وغزارته ما أخذه في الجامعة -أوجله- ما أخذه في الجامعة، أخذه على رُكَب العلماء حينما جثا بين أيدي العلماء أخذ، أما هذه فلا..

والدليل يتخرج من الكلية وهو لا يزال يسأل -وقد ختم أبواب الفقه وكتبه- تأتيه المسألة يسأل فيها!!

أين ذهبت هذه المدة من أجل التخرج ؟! ذهبت أين؟!

الثمرة نراها الآن يتخرج من كلية شرعية وهو يسأل في أسهل المسائل الفقهية، أين ذهب الإخلاص؟! لأنه لو كان العلم للعلم، لأجل أن يرفع الجهل عن نفسه ويعبد الله على بصيرة وبينة تمامًا وأتقن أصوله ورد فروعه إليها ما خرج على هذه الصورة، أبدًا.

ولكن يذكِّرني بقول بعض زملائنا يوم كنا في الصغر وكان صاحب شعر ونحن في الثانوية وكان يرتجز أحيانا، وكان قبلنا بسنة في الدراسة، سأله شيخه -وكان شيخنا أيضًا- قم أكمل في "ألفية ابن مالك":

مبتدأ زيد وعابر خبر ... إن قلتَ زيدًا عابر مَن اعتذر

فأول مبتدأ والثاني ....

وَقَفَ! حاول، حاول ما فيه، ثم قال: يا فلان، مالك اليوم؟! قال: يا شيخ أنت ما تدري -بعد ما كثَّر عليه المدرس، وهو مدرس فحل في اللغة العربية، درسنا عليه العربية بجميع فروعها-؟

قال: يا شيخ أما تعلم أن المكافأة مائتين وعشرة ؟! قال: بلى، قال: اسمع ماذا يقول فلان -يعني نفسه-:

تعلَّم العلم واطلب لأجل مائتين وعَشْرَة -وأسكن العَشْرَة، وهي صحيحة، لغة صحيحة ليستقيم الوزن:

تعلـــــم العلـــــم واطلـــــب لأجـــــل ميتـــــين وعـــــشرة

تخـــــرج مـــــن العلـــــم صـــــفرًا ســـــوى قمـــــيص وغُـــــتْرَة

فَصَدَقَ! تذكرتُ ذلك، وهذا متى تذكرته؟ لما وجدتُ بعض أبنائنا في الكلية.. عَرِّف بصحابي الحديث: عائشة؟ يقول: عائشة ثقة!!..

ما شاء الله !! عائشة -رضي الله عنها- أم المؤمنين، أشهر من هذه الشمس التي تغيب وتطلع، تقول عنها: ثقة.. محتاجة إلى توثيقك أنت الذي لو اجتمعت عليك جميع التعريفات وأدوات التعريف الأصلية والفرعية، ما خرجتَ من النكارة، تُعَرِّف بعائشة: ثقة!!

فأحيانًا يذهب العقل، وأحيانًا يذهب العقل والعلم سواء.

فيا معشرَ الإخوان، العلم بركته في المساجد، ويجب أن يُعاد إلى ذلك.

والعلم بركته في الحفظ، إذا لم تكن حافظًا واعيًا؛ فجمعك للكتب لا ينفعك!!

العلم بركته على أيدي الشيوخ والتلقي عنهم، بَذَلَ نفسه -لا براتب- وجئتَ إليه -لا لمكافأة ولا وظيفة- هنا تخلص النية؛ فتأتي الثمرة الطيبة.

وهؤلاء أصحاب الجهل المركب لا يقف لهم إلا هؤلاء، الذين يتعلمون على هذه الشاكلة والطريقة، والذين يُعلِّمون على هذه الشاكلة والطريقة، الذي لو خُيِّر بين أن يُعلِّم وأن تُكال عليه الدنانير الذهبية لاختار التعليم.

العلم أشرف مطلوب، وطالبه -لله- أشرف مَن يمشي على قدمٍ، العلم هذا الذي يرتفع به الإنسان الصحيح في الدنيا وفي الآخرة.

كم ارتفع به من فقير، وعلا به -في النسب- حقير، وساد به الموالي وظهروا به على أشراف الناس.

قال أحمد -رحمه الله- لابنه: يا بني: "إن هذا العلم ليس بالإرث، لو كان العلم بالإرث لكان أولى الناس به آلُ بيت رسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ".

انظروا في تراجم الأئمة كثير منهم من الموالي، سادوا بهذا العلم.

العلم هو قال الله وقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بفهم أصحابه -رضي الله عنهم-.

فإذا بُيِّنَ بذلك انتفت البدع والمحدثات والشذوذات، أما فهمك أنت اليوم -وأنت معروف عندنا- لستَ بشيء، لا نحتاج إليه، ولكن الناس يحتاجون إلى زمن حتى يُفَهَّمُوا، وخصوصًا بعدما غزتهم هذه الشاشات والقنوات الفضائية والدُّشُوش تُمطر عليهم أربعًا وعشرين ساعة نارًا وشَنارًا إلا ما رحم الله -تبارك وتعالى-.

فيا إخوة الإسلام:

مَـــا الْعِلْـــمُ إِلاَّ كِتَـــابُ اللهِ أَوْ أَثَـــرٌ يَجْلُـــوا بِنُـــورِ هُـــدَاهُ كُـــلُّ مُنْـــبَهِمِ

العلم -هذا العلم- الذي إذا ذُكرت الكلمة منه -هذه في الفم-اشرأبت لها الأعناق واهتزت لها النفوس وطربت لها المسامع واشتاقت إليها النفوس، هذا هو العلم الشرعي.

الآن الناس في إدبار عنه إلا قلة منهم، والناس الآن الإقبال كله على التعلم للوظائف!! ابتعاث لأجل الوظائف!! تعليم لأجل الوظائف!!

الوظيفة العظيمة التي هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور بدأ الإحساس بها يقل، والناس ما يخرجهم من الظلمات إلا هذا الوحي ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوْحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَآءُ مِنْ عِبَادَنَا﴾ الآية.. [الشورى:٥٢]، فهذا هو العلم الشرعي.

ولا بدّ -يا معشر الإخوة والأبناء- من الاجتهاد في ثلاثة أسس: (علم التفسير، وعلم الحديث، وعلم الفقه). هذه هي الثلاثة التي يُطلق عليها العلم، والبقية كلها خادمة لها.

(علم التفسير): يُدرى به كلام الله -تبارك وتعالى- وتُفهم معانيه؛ حتى يُعمل بما فيه، و(علم الحديث): يُعرف صحيح حديث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لِيُتَفَقَّه فيه بعد تثبيته، و(الفقه): هو الثمرة، (مَنْ يُرَدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينْ).

ولابد أن تأخذ (المُساعِدات) التي يسمونها (علوم الآلة): من "عربية": نحو وصرف -لسان-، من "أصول في الفقه" للاستنباط، من "أصول في التفسير" أيضًا لمعرفة الاستنباط، و"أصول في الحديث" لمعرفة الصحيح والضعيف ومعرفة الاستنباط.

واعلم أن العلم لا يأتيك في عشيةٍ وضحاها، فالله -سبحانه وتعالى- أنزل كتابه على رسوله في ثلاث وعشرين سنة ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ [الإسراء:١٠٦].

فمَن رَامَ العلمَ جملةً حُرِمَه جملةً، ومَن أراده بين عشيةٍ وضُحاها لا يمكن أن يصلَ إليه.

يقول مالك -رحمه الله- في كتابه "الموطأ" الذي كتبه في قَرابة عشرين سنة أو ثلاثين سنة -بعض الروايات- جِيءَ إليه لِيُحْمَلَ عنه سماعًا فقط -يحمله أناس فيهم الشافعي- فقرؤوه عليه في ثلاثين ليلة -قراءة بس، قراءة ما في شرح ولا تفسير- ليسمعوا ثم بعد ذلك يقولون: حدثنا مالك. بعدما خَلَصَ، قال: (كَتَبْتُهُ فِي ثَلاَثِينَ سَنَةً تَأْخُذُونَهُ فِي ثَلاَثِينَ ليلة، مَا أَقَلَّ مَا تَفْقَهُونَ فيه).

وهذا يقوله للشافعي -الذي كان يضع يده على الصفحة حتى لا يزيغ بصره؛ فتختلط مع أختها في الحفظ، باقِعَة في الحفظ- هذا الخِطاب من مالك له، فما عسى أن نقول نحن؟!!

نحن نقول:

مَا حَوَى الْغَايَةَ فِي أَلْفِ سَنَةٍ ... شَخْصٌ فَخُذْ مِنْ كُلِّ فَنٍّ أَحْسَنَه

بِحِفْظِ مَتْنٍ جَامَعٍ لِلرَّاجِحِ ... تَأْخُذُهُ عَلَى مُفِيدٍ نَاصِحِ

لابد يا أبنائي من الحفظ، لابد من الحفظ، إذا لم تكن حافظًا واعيًا -كما قلنا- فجمعك للكتب لا ينفعك.

يقولون -رحمهم الله-: "اِجْعَلْ مَا فِي صَدْرِكَ لِلنَّفَقَةِ وَمَا فِي كُتُبِكَ كَالدَّرَاهِمِ فِي الخَزَائِنِ". ترجع إليها عند الحاجة..

(الَّذِي فِي صَدْرِكَ لِلنَّفَقَةِ): أنت الآن تمشي وما في فلوس في جيبك، كيف تأخذ؟! كيف تُعطي؟! كيف تشتري؟! كيف تأخذ الحاجة إذا رغبتَ فيها؟! لابد، خذ الآن.. ما في لك -عندي ما في- ما يصلح!! الآن خذ.. خذ، هات فهذا هو المحفوظ.

تَكْتُبُ الْعِلْمَ وَتُلْقِي فِي ... سَفَرٍ ثُمَّ لاَ تَحْفَظُ لاَ تُفْلِحُ قَطُّ

إِنَّمَا عِلْمُكَ مَا تَحْفَظُهُ ... مَعَ فَهْمٍ وَتَوَقَّى مِنَ غَلَطْ

هذا هو العلم، الآن يحارب هذا الفن!! فن (الحفظ والتحفيظ)، وأقبلوا على (التفهيم)..

التفهيم للرياضيات وللكيمياء وللفيزياء وللأشياء العملية التجريبية في المعامل، أما الذي تحتاجه في تطبيقك في حياتك: حرام وحلال، هذا يحتاج إلى حفظ الصدر، بعدما كان في السطر ينتقل إلى الصدر.

فلابد من حفظ، وهذا الحفظ هو الذي مُدح به أسلافنا، وقد سُئلوا عنه كثيرًا وصُنف فيه كثيرًا وصُنف في طبقات الحفاظ وأحوالهم وأقوالهم وأخبارهم..

هذا الحفظ لا يأتي -يا أبنائي- هكذا -ويا إخواني- ما يأتي إلا بعد جُهدٍ جَهِيد، سُئل الإمام البخاري -رحمه الله- عن ذلك عن أعظم سبب في الحفظ؛ فذكر شيئين، قال: (شَرْخ الشباب، وإدمان النظر)، يعني: لا تزال في مقتبل العمر -شاب- وتكثر من القراءة والمراجعة لمحفوظك.

لهذا الذي تحفظه في صغرك و تراجعه يبقى معك، وقد قيل في هذا كثير من الوصايا والنصائح؛ فإن الحفظ في الصغر كالنقش في الحجر والحفظ في الكِبَر كالكتابة على الماء -ما يمكن أن تكتب أبدًا بحال من الأحوال-.

أُراي أُنَسَّى ما تعلمتُ في الكِبَر ... ولستُ بناسٍ ما تعلمتُ في الصغر
ولو فُلِقَ القلبُ المعلَّم في الصبا ... لألفي فيه العلم كالنقش في الحجر
وما العلم بعد الشيب إلا تعسفٌ ... إذا كلَّ قلبُ المرء والسمع والبصر
وما المرءُ إلا حُسْنُ فهمٍ ومنطقٍ ... ومَن فاته هذا وهذا فقد دمر

أبناءنا -من الصِّغَر- لابد للتحفيظ، من أن يكون له مجالاً.. حفظ للعلوم.. إذا لم تكن حافظًا فعلى هذا العلم السلام.

فهذا الذي يتميز به علماء الشريعة وحفاظها ونقلتها -حفظوها في صدورهم وفي سطورهم- ففي صدورهم: وقت الحاجة للكلام والإفتاء، وفي سطورهم: وقت المراجعة، وضبطوا هذا وهذا، وبيّنوا كيف يُضبط هنا وكيف يُضبط هنا، وهذا مبسوط في الكتب.

فيا معشر الأبناء، يا معشر الإخوان، ما يقف في وجوه هؤلاء الجهلة -الجهل المركب- إلا مَن تعلموا العلم الصحيح على الطريق والنمط الصحيح؛ فإنهم لا يخشون من أحدٍ إلا من هؤلاء.

ونحن نقول: لا نزالُ على خيرٍ، وبخيرٍ، وإلى خيرٍ -إن شاء الله- ما تمسكنا بالأثر.

الطريق الذي يُفلِح به الإنسان هو تمسكه بالأثر، وسيره على الأثر.

فإن أردتَ رُقِيًّا نحو رتبتهم ... وَرُمْتَ مجدًا رفيعًا مثل مجدهمِ
فاعمد إلى سُلّم التقوى الذي نصبوا ... واصعد بجدٍ وعزمٍ مثل عزمهمِ

هذا الذي يُثْمِرُ الثمرة لك كما أثمرها لإخوانك الذين سبقوك وآبائك وأجدادك الذين سبقوك.

معشرَ الإخوان نحن -الآن- يقل العلماء بيننا، ويكثر المثقفون بيننا: كتبة الصحف والجرائد والمجلات ومتحدثي الإذاعات والقنوات، فلا يَشْعُرُ -مع وجودكم- بأنهم علماء!!..

كيف ذلك؟! ببيان بهرجهم الذي يُبَهْرِجُونَه لينطلي على الناس، وهذا ما يكون إلا بكشفه وفضح ما فيه من دخن.

ولأننا نسمع هذا الصنف -كثيرًا- يتكلم، وهم الذين -للأسف- يُستمع لهم ويُمدحون، يقولون: مُفكِّر! ويقولون: مُثقَّف! لكن المُفكِّر والمُثقَّف تحيض زوجته لا يعرف! يذهب فكرُه وثقافتُه! ما يدري ماذا يعمل؟! فيأتي..

فالآن انكشف ما هو عالم.. مُتكلِّم، وفَرْقٌ بين المُتكلِّم المُتحذلِق وبين العالِم.

هؤلاء لا تكشفهم إلا المواقف؛ فيجب أن يُبَيّن للناس -من باب النصيحة- أنهم ليسوا بعلماء.. ليسوا بعلماء، وقد أخبر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن (فشو القلم في آخر الزمان).

القلم: الكتابة.. القراءة والكتابة تفشوا لكن يقل أهل العلم.

والناس -الآن مع وجود هؤلاء المتحدثين- طائفة منهم لا يريدون الذين يُمَسِّكُونَهم بالكتاب ويحثونهم عليه، يريدون كل شيء -الأمر- فيه خلاف، وخذ بالأرفق بالأمة..

عائشة -رضي الله تعالى عنها، كما في الصحيح- تقول: (ما خُيِّرَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا).

كيف يكون أمر يُخيّر فيه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يكون فيه إثم؟! ما هو ممكن، أن يكون مُخَيَّر بين ما فيه إثم وما لا إثم فيه.

قالوا: خُيِّرَ -عليه الصلاة والسلام- بين ما ليس فيه إثم -لكن قد يؤدي إلى الإثم- وبين ما ليس فيه إثم، أما التخيير بين ما فيه إثم -مباشرة- كله إثم وما لا إثم فيه، هذا لا يمكن أن يأتي المقارنة بينهما، فالمراد (ما خُيِّرَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما -ما لم يكن إثما-): يعني مُوصِلاً إلى الوقوع في الإثم.

ونحن -الآن- نرى كثيرًا ونسمع كثيرًا من هذه الفتاوى التي تُوقع في الإثم بدعوى التيسير!! لا، غير صحيح؛ فلأجل ذلك أنا أحثكم -معشر الإخوة والأبناء- أحثكم على أن تبذلوا الجُهد، واعلموا أنكم كلما ذقتم الحلاوة كلما استصغرتم الجُهد الذي بذلتموه في قبيل ما قطفتم وجَنَيْتُم.

وأسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يوفقنا -وإياكم جميعًا- لما يحبه ويرضاه، وأن يُبعد عنا -وعنكم- هذه البلايا والرزايا، وأن يعيذنا -وإياكم- من مُضِلات الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يرزقنا الفقه الصحيح في دينه -جل وعلا- وأن يجعلنا -وإياكم- من عباده الصالحين الذين استعملهم في طاعته.

إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.[٣]

(الأسئلة التي وُجهت للشيخ بعد المحاضرة)

جزى الله شيخنا خيرًا، وبارك الله فيه، ونفعنا بما قال، ونستأذنه في عرض بعض الأسئلة.

هذا سائل يقول: أحسن الله إليكم، لو تذكرون لنا طريقةً مُثلى لنا نحن الذين قد بدأنا هذا الطريق -طريق العلم- في تلقي هذا العلم المبارك.

الجواب/ الحمدُ لله، هذا السؤال يتكرر، والحاجةُ إليه دائمة، فنقول:

أولاً: يجب أن يُبدأ بالأساسيات ويُنطلق منها؛ فإنّ مَن بنى بيتًا لا يمكن أن يقيمه بدون أساس، فيحفر في الأرض ويُمَتِّن هذه الأساسات حتى يقيمَ عليها ما يشاء، ونحن نعلم هذا من واقع الحياة..

أنتَ إذا ذهبتَ إلى (الأمانة) و(البلدية) تريد أن تأخذ تصريح لبنا -إنشاء عمارة- يُسأل أولاً: في أي منطقة والحي الذي تريد تفتحَ فيه أو المخطط، فتعلم ما الذي يُصرّح به بالبنا -كم دورًا؟- فإذا أذنوا لكَ يعطونكَ مواصفاتٍ تصبّها في الأساسات لتُعطى الترخيص لثلاثة أدوار، أربعة أدوار، عشرة أدوار، عشرين دورًا، ونحو ذلك، فتُعطى الرخصة على مواصفاتٍ فتبني عليها هذا البنا..

وقبل ذلك ينظرون للتربة والمنطقة التي أنتَ فيها، لماذا تصلح؟ تصلح لعشرة أدوار، تصلح لخمسة أدوار، تصلح لكذا.. هكذا سمعنا منهم وإن كنتُ لم أعانِ البنا ولم أعالجه لكن هكذا سمعنا -وهذا صحيح-.

فأنتَ تنظر إلى نفسكَ وحالكَ؛ فأول ما يجب عليك أن تُمَتِّن الأساس والقواعد وذلك بحفظ المتون الأصيلة في الفنون؛ فإنه مَن حفظ المتون حاز الفنون، واحفظ فكلُّ حافظٍ إمامُ.

فلابد من حفظٍ، تحفظ في كل فنٍ متنًا كما قلنا قبل قليل، تبدأ -أولاً- **بكتاب الله** -تبارك وتعالى-..

---

٣ - إلى هنا الحد، قام بالتفريغ الأخ/ أبوشعبة محمد القادري المغربي.

ثم بعد ذلك تأتي إلى **سنة رسول الله** -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وتأخذ فيها (الأربعين النووية)، ثم (عمدة الأحكام)، ثم (البلوغ)، ولا يضيركَ بعد ذلك أن تقرأ ما تشاء، -بعد هذا-..

ثم تأتي إلى "**أصول التفسير**"، فتأخذ فيه إما كتابًا مختصرًا أو متوسطًا، تدري به أصولَ التفسير لكتاب الله -تبارك وتعالى- كـ(المقدمة) لشيخ الإسلام، كما كتب الشيخ **محمد** بين أيدينا -رحمة الله عليه- في "**أصول التفسير**" ونحو ذلك، ثم بعد ذلك تنطلق إلى بقية كتب الفن، -إذا حفظتَ مثل هذا-..

هكذا.. إذا جئتَ إلى "**أصول الفقه**": (الورقات)، أو (نظم الورقات)، أو (وسيلة الحصول إلى مهمات الأصول)، أو (مختصر التحرير) فإذا أتقنته قرأتَ على أي منها شرحًا، على شيخٍ مفيدٍ ناصحٍ، فإن المفيد هو الذي يُعلمكَ ويُفَهِّمُكَ، والناصح هو الذي يدلك ويُرشدكَ، تختصر الطريق معه، ينصح لكَ، ما تطول عليكَ الطريق.

وهكذا.. في "اللغة العربية": (الآجرومية)، (ملحة الإعراب)، (ألفية ابن مالك)، (العوامل في النحو مائة)، ثم لا يضيركَ بعد ذلك أن تقرأ ما تشاء..

وهكذا بقية الكتب، (مصطلح الحديث): (نخبة الفكر)، (نزهة النظر شرح نخبة الفكر)، ثم بعد ذلك (الباعث الحثيث)، (تدريب الراوي)، لا يضيركَ بعد ذلك أن تقرأ أي كتابٍ.

المهم أنكَ تحفظُ في كل فنٍ متنًا، ولابد في هذا المتن أن يكون جامعًا للراجح في الفن، وأن تأخذه على مفيدٍ يفيدكَ فيه وناصح ينصحكَ إن رأى عليكَ تقصيرًا أو نقصًا، أو رأى منكَ إعراضًا، أو تكاسلاً، أو رأى منكَ إقبالاً وقوةً وجِدًا يوجهكَ إلى النافع.

فهذا الذي أنا أنصحُ به ويكفي عن الإطالة والاستمرار بالباقي.

أحسنَ الله إليكم، ونختمُ بهذا السؤال: يطلب فيه توجيهًا حول أهمية الأدب لطالب العلم.

الجواب/ العلم يَزِينُه الأدب، وإن لم يكن حامل العلم متأدبًا ومتخلقًا بأخلاق أهله وآدابهم؛ فهذا الذي قلنا -قبل قليل- كما قال **مالك**: لا يُؤخذ العلم عن أربعة: (سفيه ولو كان أروى الناس): لو كان أكثر الناس رواية وهو سفيه ما يُؤخذ عنه، هذا لا يستحق أن يُؤخذ عنه؛ لأن هذا العلم نظيفٌ، فلا يمكن أن يكون إلا في قالبٍ نظيفٍ، وقوالب العلوم هي قلوب الرجال.

علمي معي أينما يَمَّمْتُ أحمله ... بطني وعاءٌ له لا بطن صندوق

أنا لَفَّقْتُ البيتين قبل قليل، وما ردّ عليّ أحد! ويسرني أن يرد عليّ آحادكم، لا أزعل! لأن هذا يدل على أن -ولله الحمد- أبنائي وإخوتي معي، وهذا أيضًا يفرحني؛ لأني أصحح غلطي.

علمـــي معـــي أينـــما يَمَّمْـــتُ أحملـــه ... بطنـــي وعـــاءٌ لـــه لا بطـــن صـــندوق

إن كنـــتُ في البيـــت كـــان العلـــم فيـــه معـــي ... أو كنـــتُ في الـــسوق كـــان العلـــم في الـــسوق

فقلوب الرجال هي قوالب العلم، وإذا لم تظهر آثار هذا العلم في الهداية والسَّمت عليهم؛ فانفُض يديكَ منهم، لا يُتعلم على هؤلاء: إما صاحب فسق أو صاحب هوى وبدعة لا يُتعلم عليهم؛ لأن هؤلاء قد خُرِمَت المروءة عندهم، فالمروءة [٤] هي استقامة الدين والمروءة.

ونحن نقول: لابد -في الرواية وفي العلم هذا- أن يكون الإنسان ضابطًا وسالمًا من الخَوارِم في الدين وفي المروءات، فهذا المعلم لابد أن تظهر عليه آثار هذا العلم، فإذا لم يكن كذلك فلا تجلس إليه.

إذا كان الفسق عليه؛ فلا.. إذا كان البدعة عليه؛ فلا.. ويُنظر إلى مَن يُستفاد منه، والذي يُستفاد منه يُعرف إما: بالتنصيص عليه بشهادة العلماء له، وإما بالاستفاضة بين الناس والشهرة.

إذا استفاض بين الناس أن فلانًا عالمٌ أو شيخٌ متقنٌ في فن كذا وكذا.. فإنه يُطلب عليه.

ونريد بالشهرة: الشهرة عند أصحاب الاختصاص -ما هم العوام الذين لا يدخلون في هذا الباب.. لا- تقويم أهل الاختصاص؛ لأنهم هم الصَّيارِفَة والنقاد، إذا شهدوا له، الحمدُ لله، وإذا استفاض بينهم ذلك فالحمدُ لله؛ فخذ على أمثال هؤلاء؛ لأنهم يدلونكَ..

قد جاء عن النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- في "سنن أبي داود" أنه قال: (إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم، فإذا ذهب أحدكم إلى الغائط فليذهب معه بثلاثة أحجارٍ فإنها تجزئه...) الحديث.

فالمعلم والد يُربي ويوجّه وينصح ويُسدد ويُكَمِّل النقصَ -إذا رآه فيك- يكمله فيك بتوجيهك للاستكمال، ويكون رحيمًا لطيفًا صبورًا عليكَ، هذا هو الذي ينبغي أن تطلب العلم عليه.

ونسأل الله -سبحانه وتعالى- التوفيق للجميع والهداية والسداد وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمدٍ وعلى آله وأصحابه أجمعين. [٥]

---

٤ - هكذا بالأصل، ولعل الشيخ يقصد: العدالة.

٥ - قام بتفريغ الأسئلة وتنسيق المحاضرة ومراجعتها -كلها- الأخ/ أبو عبدالرحمن حمدي آل زيد المصريّ- ١٤ ذو الحجة ١٤٣٢هـ